قصة مصرية

حـــــلم وانقضى

بقلم الاستاذ محمود بك تيمور

(من كتاب أبو علي عامل أرتست تحت الطبع)

— ١ —

محمد أفندي المتر ، وكيل البوسته ببلدة الكوامل ، شاب أوفى على الأربعين . تعين في وظيفته هذه منذ عشرة أعوام ، لم ينتقل في أثنائها من البلدة ؛ وكان قبلا موظفاً صغيراً في دور البريد الكبرى في عواصم المديريات . وبلدة الكوامل ، أو بالأحرى محطة الكوامل ، بلدة صغيرة من بلاد الأرياف لا يقف عليها إلا قطاران من الركاب وبعض قطارات من البضاعة . ومحمد افندي المتر يعيش عيشه مملة في حجرة دارالبريد ، يساعده غلام صغيريدعوه محمد أفندي « بالمراسلة » ؛ ففي أوقات العمل يرى وكيل البوسته جالساً في دار البريد مهتاج الخاطر ، يسب غلامه ، ويرمي بالخطابات والطرود يميناً وشمالا ، وهو ينفخ ويزمجر ، لاعنا الساعة التي أتى فيها إلى هذه البلدة الحقيرةالمهجورة ، حتى إذا مل شتم غلامه بدأيشتم الفلاحين وينعتهم بأقبح النعوت ، فاذا مل شتمهم جمل يشتم نفسه ، واصفا إياها بالجبن والكسل والاستسلام ؛ وعندما ينتهي من عمله الرسمي ، يخرج إلى قهوة « مانولى » بجلبابه القذر وجاكتته الصفراء الكالحة ذات الأزرار النحاسية ، وطربوشه منحدر إلى الوراء تاركا شعره المنفوش مبعثراً على قمة رأسه ، يجر في قدميه شبشباً أملس بلا كعب ؛ فاذا ما استقر في القهوة جاءه « مانولى » بالشيشة وفنجال القهوة وإحدى الجرائد اليومية ، فيمضي « محمد أفندي » وقته يدخن ويبصق ويطالع الأخبار وينكت مع من حوله ويتفرج على الفلاحين وهم رائحون غادون أمامه ، مستنشقاً الهواء المشبع بالتراب الذي تثيره الدواب خلفها .

ومن الغريب أن « محمد أفندي » يشكو الوحدة وملل العيش ، وهو الذي يعرف كل من هب ودب من سكان القرى والبنادر . وهناك غير قهوة « مانولى » دكان « عم ربيع » الذي يقصده « محمد أفنـدي » عند مايكون منزله قفراً من الطعام ؛ فيأكل فيـه « أم الفلافل » و « السلطة » و « الباذنجان المقلي » ، وربما عثر في الصيف على منقوع الحلبة يرطب به جوفه

الحار ،هذا فضلا عن أخبار ونوادر يطرفه بها عم ربيع . وتوجد سكة الجسر التي تقوم بجوار الترعة ، يذهب اليها «محمد أفندي» في أعصر كل يوم ليشاهد الفلاحات ويغازلهن ، وليتفرج أيضاً على اكسبريس العصر. ولديه -غير ذلك- الجامع يقصده كل يوم جمعة، لاصلاحاً ولا تديناً، بل ليتسلى بالتفرج على الفلاحين وهم يغتسلون في الميضة ؛ وليتفكه بحديث ساذج معهم . وهناك أيضاً سوق «الأربعاء» يذهب إليها مرة في الأسبوع وقت انعقادها ، لا ليشتري أو ليبيع ، بل ليساوم في أثمان الطيور والدواب قتلا للوقت ، وليماكس المارين ويتشاجر معهم .

ولكنه مع كل هذا تجده متبرماً بعيشه، يمضي حياته دائم التثاؤب والتمطي، يتنف شعيرات لحيته التي لا يحلقها إلا من الجمعة للجمعة ، ويقرض بأسنانه أطراف شاربه المشوه ؛ وفوق هذا فلمحمد أفندي خليلة من الفلاحات تبلغ الخامسة والأربعين : عليها دلائل التهدم المبكر ، تحمل له الماء لملء الزير، وتقوم له ببعض الخدمة المنزلية ، تعرّف بها منذ أن حل ببلدة الكوامل؛ وهو مع ملله منها وكرهه لها لم يفكر لحظة في تركها .

— ٢ —

وأخيراً انتقل ناظر محطة الكوامل إلى جهة أخرى ، وحل محله ناظر آخر : رجل يبلغ الخمسين ، مهيب الطلعة ، بشوارب ضخمة مبرومة ، وعيون كعيون الصقر ، لها بريق قوى ، متوجة بأهداب سوداء غليظة . وتوثقت بين « خميس أفندي » الناظر الجديد ، و« محمد أفندي العتر » صداقة متينة ؛ ولكنها كانت صداقة الكبير مع الصغير ؛ إذ كان محمد أفندي العتر يشعر -وهو في حضرة خميس أفندي — برهبة واحترام لا يعرف لها سبباً ؛ فكان إذا قابله انحنى له مسلماً بخضوع غريب ، وإذا مر أمامه خميس أفندي قام محمد أفندي فزعاً وهرول إليه ، وهو يقول : جنابك عاوز حاجة ؟

وعندما يقف قطار الركاب على المحطة ، ويخرج خميس أفندي من حجرة « النظارة » متبختراً كالأسد المهيب ، ترى خلفه محمد أفندي يسير منكمشاً في بعضه كالقط المضروب ، يدعك يديه ببعضها ، وينظر إلى الناظر بابتسامة ذليلة ، ولسان حاله يقول :

— أنا في الخدمة دائماً يا أفندم .

وشاعت في البلدة أن لخميس أفندي زوجة سودانية آية في الملاحة ، لم تتخط بعد عامها السابع عشر ، لها رشاقة ودلال نساء المدينة الخليعات ؛ فأرهف محمد أفندي العتر سمعه لهذه الأخبار المشوقة اللطيفة ، فكان يجلس على كرسيه جلسة استرخاء ، ويضع رجلا على رجل ،ويبدأ يسأل الناس عن هذه الحسناء ؛ وهو يلعب حاجبيه ويغمز بعينيه ؛ وعيناه النصف مفتوحتين تتيهان في نشوة الأحلام . وإذا عاد إلى دار البريد ،وأخذ يقوم بعمله الميكانيكي يفرز الرسائل

والطرود ، انحنى على غلامه يسأله بصوت منخفض قائلا :

ــ أرأيت ياولد زوجة ناظر المحطة ؟

فيجيبه الولد ببلاهة ريفية :

ــ لا والله يا أفندى .

فينظر إليه محمد أفندى نظرة احتقار وغيظ ويتمتم قائلا :

ــ وماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا أهبل يامغفل ؟

وعلم أخيراً « محمد أفندى » أن السودانية الحسناء تخرج من منزلها فى الأسبوع مرة لتزور زوجة العمدة ، وهى تخترق دائماً الطريق الصغير ، فتمر دائماً أمام دكان «عم ربيع» فى الذهاب والإياب ؛ فشد محمد أفندى ركابه إلى الدكان ، واتخذه محلا مختاراً يمضى فيه الوقت من العصر حتى صلاة العشاء ، ممنياً النفس بمشاهدة مليحته . وقد رأى أنه من العار عليه أن يقصد هذا المكان وهو بهيئته البشعة ، فعزم على أن يجدد نفسه وملابسه ، وكانت ثورة كبيرة انتهت بأن استدعى الحلاق عنده ليحلق له لحيته ويهذب شعره ويعطره ، وطلب منه أن يأتى لزيارته كل يوم لنفس الغرض ، وأرسل بدلته إلى عاصمة المركز لتغسل وتكوى له ، ثم اشترى «حقاً» من الورنيش ، وأمر غلامه أن يمسح له حذاءه يومياً . وكان يذهب إلى الدكان وهو يمشى متبختراً ببذلته الصفراء النظيفة والعطر يفوح منه ، ثم يأمر عم ربيع أن يضع له كرسياً أمام الباب ، يجلس عليه مترقباً « مرورها » .

وأخيراً مرت السودانية الحسناء أمامه فى ملاءتها التى كانت تحكم شدها حول نفسها ، فتظهر أعضاء جسمها بارزة مغرية ، وكانت تتثنى فى مشيتها بقوامها اللدن ، وتتلفت يميناً وشمالا ، تنثر الابتسامات لكل الجهات ، فسحر بمرآها محمد أفندى ، وأصابه نوع من الاضطراب والخبل شل حركته وألجم لسانه ؛ وكم حاول غير مرة أن يرد على ابتسامتها بابتسامة ، غيرة متواضعة : فيجد من عضلات وجهه تخاذلا مخجلا . وكانت أمنيته الوحيدة فى الحياة أن يأتى بحركة أو إشارة تفهم منها الغانية أنه معجب بجمالها وهائم فى حبها ؛ ولكنه ــ لفرط غيظه ــ كان يشعر ــ عند مرورها ــ بتصلب تام فى أنحاء جسمه ، فكأنه تمثال من حجر ؛ وإذا مرت واختفى طيفها الجميل فى الطريق ، يعود إليه إحساسه ، وتطاوعه عضلات وجهه : فيصرخ من أعماق قلبه منادياً عم ربيع ، ويمسك بيديه يهزهما بعنف وغضب وهو يقول له :

ــ لماذا خلقنى الله بهذا الطبع ؟ أنا مصيبة من مصائب الزمن .

فينظر إليه عم ربيع مشدوهاً ، لا يفهم لكلامه معنى ؛ وإذا ما انتهت العاصفة وعاد لمحمد أفندى بشره ، ينحنى على محدثه قائلا :

ــ ما رأيك ياعم ربيع فى السودانيات ؟

فتلمع لحية عم ربيع وتبرق عيناه ويقول مدارياً ارتباكه :

— أنا رجل فى حالى يامحمد أفندى ، إعمل معروف اتركنى وشأنى .

فيمسكه محمد أفندي من جلبابه ويشده منه ويقول — وقد اكتسى وجهه بنشوة هادئة — :

إنهم يقولون إن السودانيات لهن طراوة عجيبة ياعم ربيع ، أجسامهن لينة كالعجين ، إذا وضعت أصبعك — مثلا — على ذراع إحداهن ساخ كأنه فى ملبن ؛ ومن الغريب أن لهن حيوية عجيبة فى الحب لا تجدها فى النوع الأبيض ، حيوية هائلة تشعر بلهيبها يدب فى جسمك من أقل لمسة تلمسها لهن . . . آه ياعم ربيع على قبلة واحدة منهن ! إن طعمها يبقى عالقاً فى فك مدى الحياة . فيسقط عم ربيع من طوله ويقعد القرفصاء ، أمام محمد أفندى ، يلتهم بلذة عظيمة أوصافه الخلابة . . .

— ٣ —

وأخيراً قنع محمد أفندى بالنظر إلى محبوبته — من بعيد لبعيد — ، ورضى بالخيال دون الحقيقة ، وبالأحلام دون اليقظة ، وانقلبت حياته رأساً على عقب ؛ فاختفى محمد أفندى الكسول القذر الهيئة ، المشاغب الذى لا يجد فى العيش إلا السآمة والتعب ، وحل محله محمد أفندى النشيط الأنيق الوديع ، الذى ينظر إلى الدنيا نظرة الحب والابتهاج ؛ فرضى عن غلامه كل الرضا ، وخص خليلته بكامل عطفه ، وأغدق عليها المال والهدايا ؛ وكان إذا ما اختلى بها دنا منها — وهو مغمض العينين — وقال لها بصوت فيه نشوة الأحلام :

— قبلينى يا حبيبتى ! قبلينى فى قبلة طويلة جداً . . . ويتطعم القبلة ، ويطلب المزيد منها ، متخيلا نفسه أمام سودانيته الحسناء تغمره بالقبل الحارة الطويلة ؛ وكان يذهب إلى القهوة ، لا ليقرأ الجرائد ، ولا ليتفرج على المارين ، بل لينظر تائها فى الفضاء ، يتخيله سحباً رقيقة تسير فى الفضاء ، تسبح فيها حسناؤه برشاقة وإغراء ؛ وقد كثرت نزهاته الخلوية وسط الغيطان وجلساته التائهة بجوار الغدران ، يناجى نفسه بالمواويل الغرامية يغنيها بصوت ضعيف وهو يتنهد ويتمطى وينظر إلى السماء ؛ وكان يستنشق النسيم بقوة وهو فاتح ذراعيه على آخرهما ، كأنه يريد أن يملأ رئتيه بكل ما فى الفيض من هواء ؛ وإذا عاد إلى بيته مساء جلس على حافة النافذة يسامر النجوم والقمر ، ويصوغ لنفسه — بلذة عميقة — حوادث غرامية مع حبيبته ، متخيلا إياها فى أحضانه يهصر عودها الرخص بذراعيه ، ويرشف من ثغرها الرطب حلاوة الحياة .

وذهب مرة إلى القهوة ونادى صاحبها ، ثم مال عليه فى استرخاء وقال :

— عندك فونوغراف يامانولى ؟

— عندى يابيه ! ولكنه مكسور .

— ارسله للتصليح ، وأنا المكلف بمصاريفه .

وبعد أيام دار الفونوغراف ، وغنى لمحمد أفندي «أصل الغرام نظرة» ، فشعر محمد أفندي بطرب لم يشعر به طول حياته ، وأحس كأن قوة هادئة لذيذة تتمشى في أعصابه فتخدرها رويداً رويداً ، وانهال على شاربه ينتفه ، وهو في نشوة الطرب ؛ وأعاد الدور عدة مرات ، وكان يشارك الفونوغراف في الغناء ، وهو يصرخ متأوهاً بآهات طويلة عميقة ، بعد كل وقفة في الدور ، ويخبط بيديه على المائدة أو يعض أنامله دون أن يشعر بالألم .

وقد دعاه ناظر المحطة عدة مرات ليتناول الطعام عنده في البيت ، فكان يذهب إلى المكان تام الزينة كأنه عريس في ليلة دخلته ، ويجلس مرهف السمع لأقل حركة تصدر عن الدور الأعلى ، حيث توجد الزوجة ، فإذا سمع صوت أقدام تروح وتجيء ، خيل إليه أنه يسمع موسيقى تهبط عليه من السماء . . . . هذا بينما ناظر المحطة يروي له حياته ، وكيف قضاها بين قطارات الاكسبريس والركاب : حياة همة ونشاط ، مفعمة بجلائل الحوادث العظام ؛ فكان محمد أفندي يجيبه بين فترة وأخرى وهو غارق في أحلامه ومناجاته قائلا :

— قطارات الاكسبريس والركاب ؟ ! الله يكون في عونك ياشيخ !

وفي هذه اللحظة يتخيل أنه سمع خشخشة أساور ، فينتشي طرباً لحلاوة نغماتها ، ويعود إلى خياله فيتصور أذرعاً عارية جميلة ذات بشرة ملساء شهية تعانقه عناقاً طويلا .

— ٤ —

وهكذا أمضى محمد أفندي العتر ثلاثة أشهر من حياته ، لم يشعر في أثنائها إلا بكل ما هو بهي وجميل في الحياة ... أحلام لذيذة وتخيلات عذبة كان يظنها ستدوم له إلى الأبد ؛ ولكن ما كان أشد حسرته عندما علم أن خميس أفندي ناظر المحطة سينتقل إلى محطة أخرى أكبر شأناً من محطة الكوامل ، وأنه سيترك البلدة إلى مقر وظيفته الجديدة بعد أيام قلائل .

وحل يوم الوداع ؛ فأخذ محمد أفندي يساعد الخدم في نقل العفش من المنزل إلى المحطة ، ولعظم بلواه علم سراً أن زوجة الناظر قد سبقت زوجها في قطار الصباح لتعد له المنزل وقت وصوله . وكان محمد أفندي يسير مطرقاً حزيناً على رصيف المحطة يقرض أظافر يديه ، ويركل بقدمه زكائب المحاصيل وعفش الفلاحين ، وهو يسب نفسه والناس على السواء .

ولما حل الميعاد وسمع دوي القطار ، خرج خميس أفندي من حجرة النظارة في جمع من الموظفين والأعيان جاءوا للاحتفال بتوديعه ؛ وكان يسير بتؤدة ووقار ، يهز نفسه إلى الأمام وإلى الخلف كالجمل ، ويبرم شاربه الغزير برماً هادئاً ، فلما رآه محمد أفندي هرع إليه وأمسك يديه وهو يشهق باكياً ، فنظر إليه الناظر في شفقة وشكره ، وقد أخذه العجب من إخلاصه ؛ يهز يديه ولاطفه على ظهره ملاطفة أبوية .

وعاد محمد أفندى العتر إلى بيته ، وقد لبست البلدة أمام عينيه حلة سوداء بشعة ، وكان يحس فى قلبه بشىء ثائر عاتل الحية يلدغه باستمرار لدغات لا يستطيع احتمالها، تدفعه إلى الصراخ والمشاحنة والضرب ، وانهال على غلامه وخليلته يكيل لهما اللكمات والرفسات على كل لون .

وذهب إلى قهوة «مانولى» ، ولكنه لم يكد يستقر به المقام حتى ضرب المائدة بيده وحطم فنجان القهوة ، مدعياً أن البن من النوع الردىء ، وقام من فوره قاصداً أسواق البلدة — وكان اليوم يوم الأربعاء — فأخذ يتعنت مع البائعين ، ويثير غضبهم بكلماته الجارحة ، ولم يهدأ حتى اشتبك مع أحدهم فى مشاجرة عنيفة خرج منها مبطوحاً ممزق الثياب .

ومرت الأيام فهدأت سورة محمد أفندى ، وعاد إلى سابق حياته ، فأهمل حلاقة لحيته إلا يوم الجمعة من كل أسبوع ، وخرج كل يوم إلى قهوة « مانولى » بهيئته البشعة عارى الرأس يضع على كتفيه — بإهمال — جاكتته الصفراء القذرة ، ويجر فى قدميه شبشبه البالى ، وأخذ يحضر من جديد صلاة الجمعة — بعد أن أهمل حضورها ثلاثة أشهر كاملة — ليتفرج على الفلاحين وهم يتنسلون فى الميضة ، ويتفكه بحديثهم الساذج معه . . .

وعندما كان يخطر على باله بعض ذكريات من أيام غرامه العذرى ، كان يتنهد بحرارة وهو ناظر إلى السماء بعيون دامعة ، ويناجى نفسه قائلا :

— ايه يا محمد . . . حلم وانقضى . . . ؟

محمود تيمور

واجبك ! . . هل أديته ؟

انك ستؤديه بلا ريب

أيها الشباب المثقف !

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه